من تراب الطريق (٣٨٥)

الجنة والنار (*) عند المتصوفة

(١)

قال الجنيد ، كنت نائما عند أبى الحسن سرى السقطى ، فنبهنى وقال : يا جنيد رأيت كأنى قد وقفت بين يديه فقال لى يا سرى قد خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتى ، فخلقت الدنيا فهرب منى تسعة أعشارهم وبقى معى العشر ، وخلقت الجنة فهرب منى تسعة أعشار العشر وبقى معى عشر العشر ، وخلقت النار فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر ، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر عشر عشر العشر ، فقلت للباقين معى : لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم ولا من البلاء فررتم ، فماذا تريدون ؟ قالوا إنك سبحانك لتعلم ما نريد ، فقلت لهم إنى أسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم به الجبال الرواسى ـ أتصبرون ؟ قالوا : إذا كنت المبلى فأفعل ما شئت .. فهؤلاء عبادى ..

(٢)

قيل لعبد الواحد بن زيد ، هاهنا رجل قد تعبد خمسين سنة ، فَقَصَده فقال : حبيبى أخبرنى عنك فهل قنعت به ؟ قال لا .. فقال : هل أنست

(*) المال٥/ ١/ ٢٠١٠

به ؟ قال لا .. فقال : هل رضيت عنه ؟ قال لا .. قال فإنما أمرك منه الصلاة والصيام ؟ قال نعم .. فقال : لولا أنى أستحى منك لأحدثك أن معاملتك له خمسين سنة مدخولة !

(٣)

وقال ابن عطاء الله السكندرى : «من عبده لشىء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة منه ، فما قام بحق أوصافه» !

(٤)

عمل العاملين لأجل حصول الجزاء أو فرارا من عقوبة الولى ـ مدخول معلول .. ليس من شأن الحاذقين المحققين ، لأن قيام العبد بحق أوصاف مولاه يقتضى أن لا يعمل لأجل خطه من جلب ثواب أو دفع عقاب .. لأن مولاه يستحق عليه كل شىء ، ولا يستحق هو عليه شيئا .. وهذا من أعلى المحبة لله تعالى ، لأن المحب مجتمع الهم بأمر محبوبه .. فعلى العبد أن يعمل لربه عز وجل لأجل جلاله وعظمته ، فإن خالف هذا وعمل على طلب حظه ، لم يقم بحق صفات مولاه . قال سهل بن عبدالله التسترى : «ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض ، إلاّ وهم جّهال بالله تعالى ، إلاّ من يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودنياه وآخرته» .

(٥)

وقال أبو مدين : شتان بين من همته الحور والقصور ، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور !

(٦)

وفيما نقل عن وهب بن منبه من الزبور : ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار . لو لم أخلق جنة ولا نارا ـ ألم أكن أهلًا لأن أُطاع ؟!

(٧)

ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العبّاد احترقوا من العبادة ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن عباد الله . فقال : لأى شىء تعبدتم ؟ قالوا : خوفنا الله من ناره فخفنا منها . قال : حق على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه . ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة منهم فقال لهم : لأى شىءٍ تعبدتم ؟ قالوا : شوقنا الله إلى الجنان وما أعد فيها لأوليائه فنحن نرجوها . فقال : حق على الله أن يعطيكم مارجوتم . ثم جاوزهم ومر بآخرين يتعبدون فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : المحبون لله .. لم نعبده خوفًا من نارة ولا شوقا إلى جنته ـ ولكن حُبًّا له وتعظيما لجلاله . فقال : أنتم أولياء الله حقًّا . معكم أُمرت أن أُقيم . وفى لفظ آخر أنه قال للأولين : مخلوقًا خفتم ومخلوقًا أحببتم ، وقال للآخرين أنت المقربون .

(٨)

قال الشيخ أبو طالب المكى وممن روى عنه هذا أقول وأقيم فى هذا المقام ـ جماعة من التابعين بإحسان منهم أبو حازم المدنى .. كان يقول : إنى لأستحى من ربى أن أعبده خوفًا من العذاب فأكون مثل عبد السوء ، أنه إن لم يخف لم يعمل .. وأستحى أن أعبده لأجل الثواب فأكون كالأجير السوء ، أنه إن لم يعط أجر عمله لم يعمل .. ولكـن أعبده محبة له سبحانه ..

(٩)

وقال بعض إخوان معروف الكرخى له : أخبرنا يا أبا محفوظ أى شىء أهاجك على العبادة والانقطاع عن الخلق .. فسكت . قيل له : ذكرت الموت ؟ فقال وأنى شىء الموت . فقيل له : قد ذكرت القبر ؟ . قال : وأنى شىء القبر . قيل له : خوف النار ورجاء الجنة ؟ قال : وأنى شىء هذا .. إن من ملك هذا كله إن أحببته أنساك جميع هذا ، وإن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا .

(١٠)

قال أبو طالب المكى : روينا عن رابعة العدوية ، وكانت إحدى المحبين وكان سفيان الثورى يجلس بين يديها ويقول : علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة ، وكانت تقول له : «نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا» ، وكان يعترف لها ويسلم بقولها ، وكان عالما زاهدً إلاَّ أنه كان يؤثر الحديث والإقبال على الناس وهى أبواب الدنيا . وقال لها الثورى : لكل عبد شريطة ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ما عبدت الله خوفًا من النار فأكون كعبد السوء إن خاف عمل ، ولا حبا فى الجنة فأكون كالأجير السوء إن أُعْطِىَ عمل ، ولكن عبدته حبًّا له وشوقا إليه .

*****